المساء

للأستاذ رضوان ابراهيم صقلي

هيا نعد يا حبيبي .

فقد أقبل المساء ، وتوارت الشمس ، وبردت الأنسام ، والتمت النجوم .

هيا نعد . .

قبل أن تدركنا جحافل الليل ، وتطأ بسنابكها الثقيلة أذيالنا ، وتعوي الرياح الباردة أنوابنا ، وتبعثر شعورنا .

هيا إلى مأوانا . .

قبل أن يضل الظلام طريقنا وسط الغابة ، ويعمي علينا معالمها ، فلا نهتدي إلى كوخنا ، ونظل نضرب — على غير هدى — حتى تكل أقدامنا ، وتعيا مناصلنا ! !

هيا . . فالظلام يبث الرعب في حنايا قلبي ، فيدعه ويتعثر ويضطرب ، ويشهق ويختنق .

هيا . فقد صمت تغريد العصافير ، وهدأت ضجتها ، واستوحش الكون من حولنا . .

. . وانبعث صرير الجنادب حادًا يخز أسماعنا . .

. . وانطلق نقيق الضفادع المتشابه الممل يتعالى . رويداً . . رويدا ثقيلا محموجاً حزناً . . كمشرجة المصدور . .

. . مزيجاً ينزع أحضان الظلام المثقلة بالنعاس المتثائب المتمدد على ضفتي الوادي ! !

هأنذا تحت جناحك أنتي به دوادي الحياة . . ونضات تلك القوية المسرعة تبعث

الأمان إلى قلبي . . والحرارة المنبعثة من أحضانك تدفئ جوانحي . . وأنفاسك الهادئة تلفني في غلالة من الدفء والطمأنينة . . وطلعتك الحمراء المهيبة القوية تذكرني دائماً — وأنا إلى جانبك — أني في حمايتك ! !

لكن خوفي يتضاعف ، وإشفاقي يتزايد كلما أمسى الليل . . لأني أخاف عليك .

لا أدري لم أخاف الآن وأنا إلى جانبك . .

إني أخشى المجهول الرهيب . .

أخشى أن تتخطف الأشباح شيئاً ثميناً عزيزاً من بين يدي .

أخشى صمت الظلام أن يغير معادني الحائلة ، فتهرب متطلعة في مجاهل الغابة ، وتتوارى موغلة في طيات الليل ، وتختفي تحت سطوح الكرن المتشح بالسواد ، وتتركني لوحدة . . والظلام . . والحرمان . .

وتدعني أنادي ، فلا يسمع نداءي إلا أذناي . .

وأنتظر ، فلا يرجع إليّ الانتظار إلا صفير الرياح تائهة في من كل جانب ، وتضرب بتيارها البارد المبلل وجناتي ، وتلحظ بثلوجها الذائبة على أكتافي . .

ويضيع نداءي بين صرير الأشجار ، وصفير العواصف ، وعويل السماء ! !

هيا يا حبيبي نفر من هنا . . من وسط الأشباح المتحفزة ، والأفكار الثائرة ، والوساوس المدلهمة ، والهواجس الحائرة . . إلى النور . . إلى الدفء . . إلى زهرة الحياة . . إلى حيث لا نخشى ، ولا نفكر ، ولا . . نخاف ! !

هيا . . فالظلام الخائف المذعور يسرع من خلفنا ، ويوشك أن يدهمنا . .

وأعين القدر الحمراء المحتقة تصوب إلينا من خلاله كأنها تقذفنا سخطها .

والأيدي الطويلة السوداء الممتدة من حولنا لا تلبث أن تتخطفنا ! !

*

هيا نعد . . .

فقد روح الرعيان ، وخفت نغم الشاة الذي كان يدعي إلينا النهار . خفت شيئاً فشيئاً حتى مات . .

وتجرع الغرب الدماء القانية التي كانت تضرج أفقه الصبح ، واختفت كل معالم جريمة الكراه . . جريمة إزهاق النهار .

وابتلع الظلام الزاحف كل أولئك الدلالات المرتعدة التي كانت تبين من كوى القرية القريبة ، فانحسرت وتوارت . كأنما انسحبت القرية عن فيها ، فأمست رمساً من الرموس ، لا يتردد فيها نفس ، ولا تختلج فيها شدة . ولا تخطر في جنباتها حياة . .

. . إلا عواء كلاب تنبح أشباح الأبدية الراكضة في طيات الطول الزاحف ، مذعورة يفزعها سوط جبار متسلط رهيب ، وتتسارع مواكبها السود محمة في الفرار من قسوة المردة البغاة ! !

*

لقد خلا الطريق إلا مني ومنك يا حبيبي .

وليس إلا صوت نعالنا تطرق الأرض طرقات رتيبة يتردد صداها عالياً عالياً ذاهباً إلى بعيد

وأنا أصيخ بأسماعي ، وأتعقب صفير الرياح ، وأتسمع ما وراءه ، وأتوقع في كل خطرة وكل منعطف أن يهب في وجوهنا متربص من أبناء الليل ، يفجؤنا بما نكره ولو بسؤال متململ ينادي : من أنتما ؟ وأين تريدان ؟

*

ها هي ذي المعركة قد احتدمت ، فالرياح قد استعرت الأشجار بعد ما نامت عنها عين الشمس ، فاستبدت بها ، تنازعها أغصانها ، وتناثر أوراقها ، وتلك تستميت في دفاعها ، وقد زلزلت زلزالها عنيفاً يوحي بأنها لن تستسلم . .

والعاصفة دائبة تسلط عليها حينا العنيف ، وزئيرها المرعب ، وتخالسها وتراوغها ، وتكر عليها من هنا ، وتلفها من هناك .

ولكنها دائبة ، لا تني تستنجد عضلاتها ، وتستعدي أصولها في عروق الثرى أن تناضل وتناضل ، صامدة في وجه العاصفة ، صابرة على كفاح الطغيان ! !

والسحائب تتهارب في الآفاق سراعاً ، كقطعان أجفلتها صرخات الذئاب الباغية . .

غائبة لا يدعها الدهر تفكر أن جاءتها الصرخات المرعبة ، فلا تدري أن جلجلة رعودها هي التي فزعتها وألقت الرعب في قلبها . .

فما تفتأ تجري ، وما تفتأ سرعتها تزيد في فزعها ، وما يزال فزعها يمد لها في حبال الفرار * .

وهكذا لم يبق إلا أن تضعف مرتها ، ويدركها التعب واللهاث ، وتتقطع بها فجاج الأفق ، يفقدها الصفى والفزع تماسكها ، ويختزمها اليأس من النجاة ، فتقف ضارعة باكية بكاءها الطويل المنتحب المرير ! !

فهيا يا حبيبي . هيا بنا ، حتى لا نشهد المأساة ، ولا نحمل أوزارها ! !